

نظرات سريعة

في ثقافة الصين الروحية

هذا نوع من النظرات طريف ، وضرب من ضروب الثقافة غريب ، اشتغلت به منذ سنين خمس - ثم صرفتني عنه المشاغل والأيام ، ولما أزل في بداءته ، وأذكركه الآن مآثراته أخيراً عن « البعثة الصينية » التي جاء أعضاؤها يطلبون العلم في الأزهر الشريف ، كما أذكركه وعد لي بالعدد السادس في الرد على الدكتور زكي مبارك بنشر ما كتبت سابقاً عن « التصوف في الصين » . وإذا كان لي أن أسرب أن أعود إلى هذا البحث ، أتلمس فيه معنى من المعاني الروحية السامية ، التي تأصلت في نفوس اخواننا الصينيين - بل إذا كان لي أن أسرب أكثر لأنهم اخوان لنا في الشرقية ، من الشرق نشأت فلسفتهم ، وفي الشرق هبط وحيهم ، وعلى الغرب أشرق شمسهم - فاني لا أملك نفسي أدفعها من الحزن ، ولا أستطيع بالغاً ما بلغ مني ضبط النفس أن أمتنع صرختي - وهي تود أن تطلق انطلاق السهم لتعلن - في غير رفيق ولا لين - أن الجامعة المصرية تهمل هذا الضرب العريق من العلم ، وتغفل ذلك النوع الأصيل من الفلسفة . على أن إغفال الجامعة لتلك البحوث لا يقتصر عليها حسب ، بل تذهب إلى أبعد من هذا ، فتد سلطانها - وهو سلطان الجحود والانكار - على الفلسفة الهندية وما لها من شأن لا يستطيع أشد الفلاسفة إغراقاً في التعصب أن ينكره أو يحجده ، وإلا فقل لي ربك ، ما شأن فلسفة يدرس فيها الفرع دون الأصل ؟ وما شأن تاريخ للفلسفة تعرف منه حلقة وتجهل منه حلقات لا تتم السلسلة بدونها ؟

ذلك شأن الفلسفة القديمة في الجامعة فما أهونه ، وشأن العلم عند قوم يعلق عليهم آمالنا . وبعد . بهذه ثورة نفس أطلنا فيها ، وما كنا لنسرد لها على القراء لولا إخلاص يدفعنا إلى إظهار الحقائق ، والكشف عن الخبوء ، ولخير لي أن أذهب للطبيب أصرحه الداء فيصارحني الدواء . من أن أموت بالعلّة خبيثتها .

على ضوء ما قدمت ، أريد أن أسلك بالقارى ، سبيلاً جديداً في هذا البحث الذي أود ألا يظنه « عتقاء مغرب » أو خيال واعم ، أو هيكل عظام بالية ، أو وحشاً ضارياً يفتس رقيق العظام ، أو علماً جامداً يقوم على عميق الاستقراء فتمله النفوس وتهجره ، زاعمة - في غير ما حق ولا ولاء - أن الفلسفة عامة ، والقديم منها بصفة خاصة ، لا يتفق والروح الحديث ، أو يلتئم وذهن ابن القرن العشرين .

والحقيقة واحدة لا تتغير، ليس في ذلك من ريب، وما كان قد بدأ اليوم فقد كان جديداً أبالأمس، وما الجديد والقديم إلا مظاهر، وأظواهر لأعراض لا تنس الجوهر في قليل ولا كثير. وقد بما قيل: إن ذلك القديم كان حديثاً وسيبقى هذا القديم حديثاً مذهب فوهي:

والآن فلأرجع بك إلى خمسين قرناً أو تزيد، بل إلى عام ٣٤٦٨ ق. م على التحديد، وهو ذلك العام الذي وضع فيه الفيلسوف « فوهي » أول كتاب عرف في اللغة الصينية عن الفلسفة الروحية — لتعرف أن الروح التي أملت على « فوهي » كتابه قد انصرفت به إلى الروحانيات البحتة، تاركة وراءها كل ما يتعلق بالماديات، وبحسبك أن تعلم أن « فوهي » يرى للعالم روحاً خرجت منه جميع الأرواح وإليه تعود، وأن له إدراكاً يدرك به خروج الروح وعودته ثانية.. وهكذا دواليك.

بحسبك هذا لتعلم أن الروح في نظر « فوهي » لا تنفى ولكنها خلدة أبداً... لهذا أوصي أتباعه ومريديه بأن يكونوا رفقاء بالحيوان، رحماء بقبيله. حتى لقد ذهب أتباعه إلى حد اتخاذ بعض الحيوان آلهة من دون الله... وإذا كان ذلك يعد منهم مغالاة في الرقي، وإغراقاً في الرحمة — فإن الباعث عليه إنما هو العقيدة الراسخة بخلود الأرواح أيا كان نوعها.

ولنحسب أن بعض هذه التعاليم مبثوثة في تعاليم « فيثاغورس » الفيلسوف اليوناني، إلى حد ليس باليسير: فيثاغورس يرى أن روح هذا العالم العظيم إنما هو الأثير، وأن من الأثير خرجت جميع الأرواح « الجزئية » للإنسان والحيوان، وأن الأرواح لا تنفى ولكنها تسبح في الهواء من جهة إلى أخرى حتى تصادف جسماً — أيا كان نوعه — فتحل فيه.

مثال ذلك: إذا خرجت الروح من جسد الإنسان فقد يتفق أن تحل في جسم حيوان، كما يتفق أن تحل في جسم إنسان أيضاً، من غير ما فرق بينهما... كذلك إذا خرجت من جسم أي حيوان فقد تحل في جسم إنسان، أو في جسم حيوان آخر، من غير ما فرق أيضاً، لهذا يرى « فيثاغورس » كما رأى « فوهي » من قبل: أن يمنع الإنسان عن أكل أخيه الحيوان. بل يذهب إلى أكثر من هذا، فيزعم أن من يقتل الذبابة والزنبور، أو غيرها من الهوام يكون مذنباً ذنب الذي يقتل إنساناً، ما دامت سائر الأرواح واحدة! وإذا قد تأثر فيثاغورس بأراء فوهي بالغ الاثر.

وقد يتفق لنا أيضاً أن نجد بعضاً من هذه التعاليم أو تنفاً من تلك الآراء مبثوثة في شعر المعري أو في فلسفته على التحقيق، فالمعري حرم على نفسه أكل اللحوم، وتلك مسألة مقطوع بتجربتها، فقد ثبت أنه مرض في أخريات أيامه مرضاً شديداً، اضطرب طبيبه أن يصف له علاجه أكل ديك من الدجاج، فما لبث أهله أن قدموه إليه، وما لمسته يده حتى اقشعر بدنه ورناته بخير ما يرى مفقود عزيز، فقال يخاطب الذبيح:

« أيها الديك! استصغروك فذبحوك، ولو كنت من ذوات الأنياب لوقروك »

وفي رواية أخرى : « استضعفوك فوصفوك ... هلا وصفوا شبل الأسد ؟ ! »
وله في ذلك قصيدة يقول منها :

غدوت مريض العقل والدين فالقني لتسمع أنباء الأمور الصخاني
فلا تأكلن ما أخرج الماء ظالما ولا تبغ قوتا من غريض الذاني
ولا ييض أمات أرادت صريحه لأطفاها دون الغواني الصرايح
ولا تفجعن الطير وهي غوافل بما وضعت فالظم شر القبايح
ودع ضرب النحل الذي بكرت له كواسب من أزهار نخل فوائح
فماجمته أن يكون لغيرها ولا جعلته للندى والمنائح
وكثيراً ما كان يضمن شعره أياتاً حكيمة في الرفق بالحيوان ، ومن ذلك قوله :

تسريح كفك برغوثاً ظفرت به أبر من درهم تعطيه محتاجاً
كلاهما يتوفى والحياة له حبية ويروم العيش محتاجاً

والذي نوده من هذا ، هو أن ثبت أيضاً أن المعرى تأثر بهذه الآراء (آراء فوهي)
أو بعضها ، وإن كان عن طريق غير مباشر ... كما ثبت إلى حد بعيد أن « فوهي » كان مبدع
هذه الثقافة الخالدة .

مذهب لاوتس :

جاء بعد فوهي « لاوتس » فكان أول الذين حملوا مشعل الثقافة الصينية بعد « فوهي »
مراحل من السنين بعيدة ... ولد عام ٦٠٢ ق.م فلما أن تمت له مقومات الثقافة الروحية أوجد من
وضاعها المختلفة مذهباً جديداً دعاه « مذهب طاو » وبعبارة أخرى « مذهب العقل الأسمى »
يلخص هذا المذهب في أن للعالم وجوداً روحياً وظواهر روحية تحتة ، كما يعتقد بانتقال الأنفس
من كائن إلى كائن آخر ، أي أنه يذهب إلى التناسخ ، ويرى أن العقل الأسمى ، هو أصل
آلهة ، منه نشأت المواد الهيولية وإليه تعود . وتقوم تعاليمه على دعائم من التأمل والعزلة ،
ها — في نظره — الواسطتان الفعالتان لتنقية الطبيعة الروحية ، ويرى أن المعرفة لا تحصل إلا
أسطة العقل المحض ، وأن الواجب ألا يؤخذ بما يأتي بطريق الإدراك الحسي ، وأن بالعقل
اسمى وحده تحصل الأشياء ، ومن غير ذلك لا يحصل بتاتاً ، ولذلك يقول لاوتس :
من أراد الوصول إلى المعرفة ، أو يرغب في الحقيقة ، فليُنظر إلى بأمعان ، ولينعم بتبصر ،
أهي ، وهي أنا » ويدعى أتباع هذا المذهب « بالطاوسى » أى العقلين .

ونحن نلاحظ أيضاً أن ثمة أوجها من الشبه ليست بالقليلة بين « لاوتس » و « زينون » من
نية ، وبينه وبين « الحلاج » من ناحية أخرى .

يقول «لاوتس» لا تباعه : « من أراد الوصول إلى الحقيقة فليُنظر إلى باعان ولينعم ببصر ، فأنا هي ، وهي أنا » ونجد ذلك المعنى في قول « الحلاج » تلميذ « الجنيد » وهو « ما في الحجة إلا الله » وفي قوله « أنا الحق » وفي قوله :

أنا من أهوى ومن أهوى أنا نحن روحان حللنا بدنا
فاذا أبصرتني ... أبصرته وإذا أبصرته أبصرتنا

وتبين ذلك واضحاً تمام الوضوح في قوله :

سبحان من أظهر ناسوته في سبنا لا هوته الثاقب
ثم بدا في خلقه ظاهراً في صورة الآكل والشارب
حتى لقد عاينه خلقه كل لحظة الحاجب بالحاجب

بحسبنا هذا وإلا يطول بنا القول لو أردنا الشرح والاستقصاء . وننتقل إلى تبيان أوجه الشبه التي تراها بين كل من : « لاوتس » و « زينون »

يقول زينون : إنه ينبغي لكل إنسان أن يعيش بمقتضى الطبيعة ، أى لا يفعل ما يخالف حكم العقل ، فالعقل هو القانون العام المشترك بين جميع الناس ، كذلك ينبغي لكل إنسان أن يمسك بالفضيلة لذاتها ، لا لما يترتب عليها من ثواب ، فانها بذاتها كافية لاسعاد المرء ، فمن تمسك بها تمتع بكل الراحة ، ولو أحاطت به صنوف المتاعب من كل جهة ، وأنه لا نافع إلا ما كان صلاحاً ، ولا نفع في الذنب مطلقاً ، وكذلك تترتب الحواس بالشهوات ليس من الخير في شيء ، لا انها مدنسة للمرء ، ولا خير في المدنس . وطبع الحكيم : شدة الأخلاق العالية ، ودوام التأملات الأهلية ، والاسترسال مع الانقاس الربانية لتم للروح تقاوتها ، ولتكون بذلك صالحة للحياة الثانية التي ستكون بعد هذه الحياة الأولى .

كما يتقدم يتضح لنا بجلاء تام أن أثر الفلسفة الصينية واضح بعض الوضوح — إن لم يكن كله — في نواح عدة من نواحي الفلسفة اليونانية والاسلامية ، لكن كيف كان هذا التأثير أو ذلك السبيل الذي يسر لهذه الآراء وجودها في الفلاسفتين الآخرين . هذا ما لم نعرفه على التحقيق ، وأظهر ما نعرفه عن ذلك إنما هو في تطور فلسفة « كوشيشوس » الذائعة الصيت ، والتي لاقت رواجاً فاق ما بقيتها بمراحل . ولعل المرء في عدم وضوح هذين المذهبين المتقدمين وضوحاً تاماً يرجع إلى عراقتهما في القدم .

أما مذهب « كوشيشوس » فيرجع عهده إلى القرن السادس قبل الميلاد فهو إذن حديث بالنسبة للآخرين ، وفلسفته واسعة رحبية الجنبات بطول البحث فيها ، وقد تناولته في فرصة أخرى . على أن هذا لا يمنعنا من أن توجه إلى الذين يعلمون شيئاً عن هذين المذهبين ، راجعين إليهم أن يستوعبوا ما أذعته عنهما في تمن وصدق . ثم أن يبدوا آراءهم فيهما ، فانا لم نقصد من دراستنا هذه سوى أن نستنهض الهمم ونحفز النفوس ، وإلا فلك نظرات عجي لا أكثر ولا أقل .